عن مشاهداتنا وتجاربنا العقلية والمادية . فطريق الإيمان بها إنما هو التسليم لها بعد أن تصلنا بطريق ثابت صحيح .

٩ ـ ثم إن مسألة الأسرى ، بما تضمنته من مشاورة الرسول ﷺ في شأنهم ، وما أعقبها من حكم افتدائهم بالمال ثم نزول آيات تعتب على النّبي ﷺ وعلى أصحابه اتخاذ ذلك الحكم ، نقول إن لهذه المسألة دلالات هامة :

أولاً : (الأسرى واجتهاد الرسول ﷺ) : دلّتنا هذه الواقعة على أن النّبي ﷺ كان له أن يجتهد ، والذين ذهبوا إلى هذا ـ وهم جمهور علماء الأصول ـ استدلوا على ذلك بمسألة أسرى بدر . وإذا صحّ أن يجتهد ، صحّ منه بناء على ذلك أن يخطئ في الاجتهاد ويصيب . غير أن الخطأ لا يستمر ، بل لا بدّ أن تنزل آية من القرآن تصحح له اجتهاده ، فإذا لم تنزل آية فهو دليل على أن اجتهاده ﷺ قد وقع على ماهو الحق في علم الله تعالى .

قال شارح اللمع : « وقد كان الخطأ عليه جائزاً ، إلا أنه لا يُقرُّ عليه ، بل ينبّه عليه سريعاً » ، وقال أبو إسحاق الشيرازي : « ومن أصحابنا من قال : ما كان يجوز عليه الخطأ ، وهذا خطأ ، لقوله تعالى : ﴿ عفا اللهُ عَنْكَ ، لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ﴾ فيدل على أنه أخطأ »[٩] ، [التوبة ٤٣/٩] .

وقال الأسنوي في شرحه على المنهاج : « واختار الآمدي وابن الحاجب أنه يجوز عليه الخطأ بشرط أن لا يقرّ عليه . ونقله الآمدي عن أكثر أصحابنا والحنابلة وأصحاب الحديث »[١٠] .

وقال الإمام البيضاوي في تفسير قوله تعالى : ﴿ ما كانَ لِنَبِيٍّ أنْ يكُونَ لَهُ أسْرَى ﴾ [الأنفال ٦٧/٨] الآية .. « والآية دليل على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يجتهدون ، وأنه قد يكون خطأ ولكن لا يُقَرُّون عليه » .

وقد يستعظم البعض نسبة الخطأ إلى رسول الله ﷺ ، متوهمين أن الخطأ هو الإثم

---

(٩) انظر شرح اللمع لأبي إسحاق الشيرازي : ٨٢٤

(١٠) الأسنوي على المنهاج : ٥٣٧/٤

أو الانحراف أو نحو ذلك مما يتنافى مع العصمة الثابتة للأنبياء . غير أن المقصود بالخطأ هنا عدم مطابقة اجتهاده ﷺ لما هو الكمال الثابت في علم الله عزّ وجلّ . وهو لا يتنافى مع عصمته ﷺ ، بل هو مثاب من الله تعالى عليه . والناس مكلفون باتباعه في ذلك مالم تتنزل عليه آية تصرفه إلى حكم آخر شأنه شأن الحاكم إذا اجتهد . وهكذا فإن اجتهاده ﷺ فيما لم ينزل عليه وحي يتعلق به ، له طرف ناظر إلى الناس ، وطرف آخر يتعلق بعلم الله تعالى . فأما اجتهاده بالنسبة للطرف الأول ، فلا يوصف بالخطأ البتة ، لأن الناس مكلفون باتباعه على كل حال كاتباعهم لسائر المجتهدين من بعده ، إذ لاسبيل لهم للاطلاع على الخفي الثابت في علم الله عزّ وجلّ . وأما اجتهاده بالنسبة للطرف الثاني أي المتعلق بعلم الله عزّ وجلّ ، فخاضع لوصفي الصحة والخطأ ، إذ هو قابل لموافقة ماهو الكمال الثابت في علمه عزّ وجلّ ، ولعدم موافقته له . والكمال المطلق إنما هو لله عزّ وجلّ . ولقد كان عليه الصلاة والسلام يرقى في الكمالات متجاوزاً المراحل التي كانت تبدو له نقصاً وتقصيراً بالنسبة لما ارتقى إليه من بعد ، وكان يستغفر الله من تلبسه بها كاستغفارنا من الذنوب ، ويقول : « إنه ليغان على صدري فأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة » .

ثانياً : كما أن غزوة بدر هي أول تجربة للمسلمين في التضحية والقتال في سبيل الله تعالى وهم على ما كانوا عليه من الضعف والقلة ، فكذلك هي أول تجربة لهم في رؤية الغنائم والأموال أمامهم في أعقاب المعركة ، وهم على ما كانوا عليه من الفقر والحاجة . وقد عالجت الحكمة الإلهية تجربة القتال مع الضعف بأن ثبّت الله قلوبهم وطمأن نفوسهم ـ كما ذكرنا ـ بالخوارق الدالة على النصر .

ثم عالجت الحكمة الإلهية تجربة رؤية الغنائم والأموال مع الحاجة والفقر ، بوسائل تربوية دقيقة ، جاءت في وقتها المناسب ، وقد تجلى أثر هذه التجربة في مشهدين ، على أعقاب هذه الغزوة . أما المشهد الأول فحينما انهزم المشركون وتركوا وراءهم أموالهم المختلفة ، فقد تسابق بعض المسلمين إليها واختلفوا بعضهم مع بعض في كيفية استحقاقهم لها وكادوا يشتجرون على ذلك ، ولم يكن قد نزل بعدُ حكم توزيع الغنائم بين المقاتلين فراحوا يسألون النّبي عليه الصلاة والسلام ويُنهون إليه خصومتهم في الأمر . وعندئذٍ نزل قوله تعالى :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفالِ قُلِ الأَنْفالُ للهِ والرَّسُولِ ، فاتَّقُوا اللهَ وأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ

وأَطِيعُوا اللهَ ورَسُولَـهُ إنْ كُنْتُمْ مؤمِنِينَ ، إنّما المؤمنونَ الـذينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُـوبُهُمْ وإذا تُلِيَتْ عليهِمْ آياتُهُ زادَتهُمْ إيماناً وعلى ربِّهِمْ يتوكَّلونَ ﴾ [الأنفال ٨/١ ـ ٢] .

فأنت تـدري أن الآيتين لا تنطويـان على جواب سؤالهم ، بل فيهما صرف لهم عن الموضوع كله ، إذ هي تقول : إن الأنفال ليست لأحد منهم ، بل هي لله ورسولـه ، أمـا هم فعليهم إصلاح هـذا الشقـاق الـذي وقـع فيما بينهم وإطـاعـة الله في أوامره ، واجتنـاب نـواهيــه ، فتلــك هي وظيفتهم ، أما المال والدنيا ، فليعتمدوا فيهما على الله تعالى . فلما ثـاب هؤلاء المسلمون إلى هـدي هاتين الآيتين وصرفوا النظر عما اشتجروا من أجله نزلت آيات أخرى تقرر كيفية تقسيم الغنـائم بين المقاتلين على اختلافهم . وهذه من أبرع الوسائل التربوية الدقيقة كما ترى .

وأما المشهد الثاني ، فهو عندما تشاور النّبي ﷺ مع أصحـابـه في شـأن الأسرى ، فقـد سكنت نفوسهم إلى افتـدائهم بـالمـال . وقـد كانت المـلاحظـة في ذلـك هي الجمع بين الرحمـة والرفق بـالأسرى ، عسى أن يرعووا ويـؤمنـوا بـالله ، والتعـويض عمـا فـات المهـاجرين من أموالهم التي تركوها في مكة عسى أن يقع موقعاً لديهم ويساعدهم على إصلاح شؤون دنيـاهم . وهذا الرأي الذي سكنت إليه نفس رسول الله ﷺ يـدل على مـدى شفقتـه على أصحـابـه . وهذه الشفقة هي التي جعلت يده ﷺ ترتفع بالدعاء للمهاجرين لمـا رآهم لـدى خروجهم إلى بدر ، وإن علائم الحاجة والفقر بـاديـة عليهم قـائلاً : « اللهم إنهم حفـاة فـاحملهم ، اللهم إنهم عراة فاكسهم ، وإنهم جياع فأشبعهم »[11] .

ولكن الحكمة الإلهية لم ترد للمسلمين أن يجعلوا من النظرة إلى المال ميزاناً أو جزء ميزان للحكم في قضـاياهم الكبرى التي قامت على أسـاس النظرة الـدينيـة وحـدهـا مهما كانت الحـال والظروف ، إذ يوشك ، لوتُركوا لهذه النظرة وهم أمام أول تجربة من هـذا النوع ، أن يجري ذلك مجرى القاعـدة المطردة فتستولي النظرة المـاديـة على مثل هـذه الأحكام التي ينبغي أن تظل متسامية في علياء لا يطولهـا شيء من أغراض الـدنيـا على اختلافهـا ، ومن الصعب لمن سار وراء الدنيا أشواطاً واستطاب مذاقها أن يرتد عنها ويفطم نفسه عن مذاقها .

روى مسلم عن عمر بن الخطـاب أنـه قـال : دخلت على رسول الله ﷺ بعـد أن قضى

---

(١١) أبو داود . عن جمع الفوائد : ٩٠/٢

فالعدالة ينبغي لها أن تكون مطبقة دائماً ، وليس للكراهيـة والغضب في الله تعـالى أن يقفـا حاجزاً دون تحقيق مبادئ العدالة يومـاً مـا . وفي ذلـك يقول الله تعـالى : ﴿ ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَومٍ على ألاّ تَعْدِلُوا ، اعدِلُوا هُوَ أقْرَبُ للتَّقْوَى ﴾ [المائدة ٨/٥] .

إنما المقصود أن تعلم أن المسلمين دون غيرهم أمة واحدة ، كما نصّت على ذلك الوثيقة التي شرحناها فيما مضى . وإذا كان كـذلـك ، فـإن ولاءهم وتـآخيهم ينبغي أن يكونـا محصورين فيما بينهم . أما معاملتهم فينبغي أن تكون قائمة مع الناس كلهم على أسـاس دقيق من العـدل ورغبة الخير للجميع والدعاء للناس جميعاً بالصلاح والرشد .

غزوة أُحد

سببهـا أن بقيـة من زعمـاء قريش ممن لم يقتلوا في غزوة بـدر ، اجتمـع رأيهم على الثأر لقتلاهم في بـدر ، وأن يستعينوا بعير أبي سفيـان ومـا فيهـا من أمـوال لتجهيز جيش قـوي لقتـال رسـول الله ﷺ . فـاجتمعت كلمـة قريش على ذلـك ، وانضمّ إليهم غيرهم أيضـاً ممن يسمّـون بـالأحـابيش ، واستعانوا بعدد كبير من النسوة كي يمنعن الرجال من الفرار إذا أحـدق بهم المسلمون . وخرجوا من مكة وقد بلغوا ثلاثة آلاف مقاتل .

وسمع رسول الله ﷺ بـالخبر فـاستشـار أصحـابـه وخيَّرهم بين الخروج لملاقاتهم وقتالهم ، والبقاء في المـدينـة ، فـإن دخلوا عليهم فيهـا قـاتلوهم ، فكان رأي بعض شيـوخ من المسلمين عـدم الخروج من المـدينـة ، وكان عبـد الله بن أبي بن سلـول من أصحـاب هـذا الرأي ، غير أن كثيراً من الصحابة ممن لم يكن لهم شرف القتال في بـدر رغبوا في الخروج ، وقـالوا : « يا رسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا ، لا يرون أنّا جبنّا عنهم وضعفنا » ..

ولم يزل أصحاب هذا الرأي برسول الله ﷺ حتى وافقهم على ماأرادوا ، فدخل بيته فلبس درعه وأخذ سلاحه وظن الذين ألحوا على رسول الله ﷺ بالخروج أنهم قد استكرهوه على ما لا يريد فندموا على ما كان منهم ، ولما خرج عليهم قالوا : استكرهناك يا رسول الله ، ولم يكن لنا ذلك ، فإن شئت فاقعد . فقال رسول الله ﷺ : « ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته (أي درعه) أن يضعها حتى يقاتل »[١٧] .

● ثم إن النّبي ﷺ خرج من المدينة في ألف من أصحابه ، وذلك يوم السبت لسبع ليال خلون من شوال على رأس اثنين وثلاثين شهراً من هجرته عليه الصلاة والسلام[١٨] ، حتى إذا كانوا بين المدينة وأُحد انخذل عبد الله بن أبي بن سلول بثلث الجيش ـ وعامتهم من شيعته وأصحابه ـ وكرّ راجعاً بهم وهو يقول : « عصاني وأطاع الولدان ومن لا رأي له ، وما ندري علام نقتل أنفسنا ؟ » .

وتبعهم عبد الله بن حرام يناشدهم الله أن لا يخذلوا نبيهم ، فلم يستجيبوا لندائه ، وقال زعيمهم : « لو نعلم قتالاً لاتّبعناكم » . وروى البخاري رضي الله عنه أن المسلمين اختلفوا في أمر هؤلاء الذين انخذلوا عن المسلمين ، ففرقة منهم تقول نقاتلهم ، وأخرى تقول دعوهم ، فنزل في ذلك قوله تعالى : ﴿ فَمَالَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ واللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ؟

---

(١٧) رواه ابن إسحاق والإمام أحمد ، وروى الطبري قريباً منه ، وانظر سيرة ابن هشام : ٦٢/٢ ، وتاريخ الطبري : ٥٠٠/٢ ، وترتيب مسند الإمام أحمد : ٥٢/٢٢

(١٨) طبقات ابن سعد : ٨٧/٣ ، وسيرة ابن هشام : ٦٢/٢

أتُرِيـدُونَ أنْ تَهْـدُوا مَنْ أضَـلَّ اللهُ ﴾[١٩] [النسـاء ٨٨/٤] . واقترح بعض الصحابة الاستعانة باليهود ، بنـاء على مـا بينهم من ميثـاق التنـاصر فقـال رسول الله ﷺ : « لا نستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك »[٢٠] .

وعسكر النّبي ﷺ وأصحابه ـ وهم لا يزيدون على سبع مئـة مقـاتل ـ في الشعب من أُحـد ، فجعل ظهور المسلمين إلى أُحـد واستقبلوا المـدينـة ، وجعل على الجبـل خلف المسلمين خمسين راميـاً ، وأمّر عليهم عبـد الله بن جبير وأوعز إليهم قائلاً : « قوموا على مصافّكم هذه فاحموا ظهورنـا ، فـإن رأيتمونا قد انتصرنا فلا تشركونا ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا »[٢١] .

وألـحّ كل من رافـع بن خـديـج وسمرة بن جنـدب أن يشتركا مـع النّبي ﷺ في القتـال ، وهمـا ابنـا خمس عشرة سنـة ، فردّهمـا النّبي ﷺ لصغر سِنّهما ، فقيل له : « يـا رسول الله إن رافعـاً رام ، فـأجـازه ، فجـاء سمرة بن جندب يقول : فأنا والله أصرع رافعاً ، فأجازه هو أيضاً » .

● وأمسك النّبي ﷺ بسيف فقال : « من يأخذ هـذا السيف بحقـه ؟ فأقبل أبو دجانة قائلاً : أنا آخذه بحقه ، فأعطاه إياه ، فأخرج أبو دجانة عصابة حمراء فعصب بها رأسـه (وكان ذلـك شـأنـه عنـدمـا كان يريـد أن يقـاتـل حتى المـوت) ، ثم راح يتبختر بين الصفـوف . فقـال رسول الله ﷺ : إنها لمشية يبغضهـا الله إلا في مثل هـذا الموطن »[٢٢] . ثم

---

(١٩) صحيح البخاري : ٣١/٥

(٢٠) طبقات ابن سعد : ٨٠/٣ ، وروى ابن إسحاق نحوه : ٦٥/٢

(٢١) ابن سعد : ٨٠/٣ ، وابن هشام بألفاظ قريبة من هذه . وروى نحوه البخاري : ٢٩/٥

(٢٢) ابن هشام : ٢٣٣/١ . وروى نحوه مسلم عن طريق حماد بن سلمة ، إلا أنـه لم يرد في مسلم : أنهـا لمشية يبغضها الله .. (انظر صحيح مسلم : ١٥/٧) .

أعطى رسول الله ﷺ اللواء لمصعب بن عمير رضي الله عنه . وكان الـذي يقود ميمنة المشركين خالد بن الوليد ، وميسرتهم عكرمة بن أبي جهل .

● فـاقتتل النـاس ، وحميت الحرب ، وراح المسلمون يحسون المشركين في اندفـاع مـذهل ، وكان في مقـدمـة المبـارزين والمقـاتلين أبو دجـانـة ، وحمزة بن عبد المطلب ، ومصعب بن عمير .

وقُتل مصعب بن عمير دون الرسول ﷺ فأخـذ اللواء علي بن أبي طـالب رضي الله عنـه ، ومـا هـو إلا أن أنـزل الله نصره على المسلمين ، فـانكشف المشركون منهزمين لا يلـوون على شيء ونسـاؤهم يـدعـون بـالـويـل . وتبعهم المسلمون يقتلون ويغنمون . فتكلم الرمـاة الـذين كانـوا على الجبـل في النزول ، واختلفوا فيما بينهم ، فنزل كثير منهم ظنّاً منهم بأن الحرب قد وضعت أوزارها ، وراحوا يـأخـذون مع أصحـابهم الغنـائم ، وثبت رئيسهم عبـد الله بن جبير مع عدد يسير قائلاً : لا أجـاوز أمر رسول الله ﷺ . ونظر خـالـد بن الوليـد إلى خلاء الجبل وقلّة أهلـه ، فكرّ راجعـاً بـالخيل وتبعـه عكرمـة ، فحملوا على من بقي من الرماة فقتلوهم وأميرهم ، وأخذوا يهجمون على المسلمين من الخلف[٢٣] .

● وحينئـــذٍ انكشف المسلمـــون وداخلهم الرعب ، وأخـــذ المسلمـــون يقتتلـون على غير شعـار أو هـدى ، وأوجـع المشركـون في المسلمين قتـــالاً ذريعاً ، حتى خلص إلى رسول الله ﷺ فرُمي بالحجارة حتى رمي لشقه ، وأصيبت رباعيته (السّن المجاورة للنّـاب) وشجّ في وجهـه ، وجعل الـدم يسيل على وجهـه فيمسحـه وهو يقول : « كيف يفلح قـوم خضبـوا وجـه

---

(٢٣) طبقات ابن سعد : ٨٣/٣ . ورواه البخاري عن البراء في كتاب الجهاد : ٢٨/٥

نبيّهم وهو يدعوهم إلى ربّهم ؟ » ، وجاءت فاطمة رضي الله عنها تغسل عنه الدم وعليّ يسكب الماء بالمجن ، فلما رأت أن الماء لا يزيد الدم إلاّ كثرة أخذت قطعة حصير فأحرقته حتى صار رماداً ثم ألصقته بالجرح فاستمسك[٢٤] .

● وأثناء ذلك شاع في الناس أن رسول الله ﷺ قد قتل ، وكانت هذه الشائعة من أشدّ ماأدخل الرعب في قلوب بعض المسلمين ، وهي التي جعلت ضعاف الإيمان يقولون : « فما مقامنا هنا إذا كان قد قتل الرسول ؟ » ، وذهبوا يولون الأدبار ، وهي التي جعلت أنس بن النضر يقول : « بل مافائدة حياتكم بعد رسول الله ﷺ ، ثم أشار إلى بعض المنافقين وإلى ضعاف الإيمان قائلاً : اللهم إني أبرأ إليك مما يقول هؤلاء ، وأعتذر إليك مما يقول هؤلاء ، وانطلق فشدّ بسيفه على المشركين حتى قتل »[٢٥] .

● وتجلّى في هذه الأثناء مظهر رائع للتضحية والفداء ممن كانوا حول رسول الله ﷺ من الصحابة فراحوا يقدمون أرواحهم رخيصة دون رسول الله ﷺ حتى قتل معظمهم .

روى البخاري أنه لما كان يوم أُحد ، انهزم الناس عن النّبي ﷺ ، وأبو طلحة بين يدي النّبي ﷺ مجوّب عليه (مترّس بنفسه عليه) بجحفة له (ترس من جلد) ، وكان أبو طلحة رجلاً رامياً شديد النزع . يشرف

---

(٢٤) متفق عليه بألفاظ متقاربة .
(٢٥) متفق عليه .

النّبي ﷺ ينظر إلى القــوم ، فيقــول أبــو طلحــة : « بــأبي أنت وأمي لاتشرف ، يصيبك سهم من سهام القوم ، نحري دون نحرك »[٢٦] .

وترّس أبو دجانــة نفســه دون رسول الله ﷺ ، والنّبــل يتــلاحــق في ظهره وهو منحنٍ على رسول الله ﷺ لا يتحول . وترّس زيــاد بن السكن نفسه دون رسول الله ﷺ حتى قتل هو وخمسة من أصحابه ، وكان آخرهم على مــا رواه ابن هشــام عمــارة بن يــزيــد بن السكن ، فقــاتــل دونــه عليه الصلاة والسلام حتى أثبتته الجراح ، فقــال رسول الله ﷺ : « أدنوه مني ، فوسّده قدمه ، فمات وخده على قدم رسول الله ﷺ » .

● ثم إن الحرب هدأت بين الطرفين وانحسر المشركون منصرفين ، وقــد زُهوا بــالنصر الــذي أحرزوه ، وفزع النــاس لقتلاهم ، وكان فيهم حمزة بن عبــد المطلب ، واليمان ، وأنس بن النضر ، ومصعب بن عمير وعــدد كبير غيرهم ، وقــد تــأثر النّبي ﷺ لمقتل عمــه تــأثراً كبيراً ، وقــد مُثِّل بــه فبقر بطنه وجدع أنفه وأذنــاه . وأخــذ النّبي ﷺ يجمع بين الرجلين من القتلى في ثوب واحد ثم يقول : « أيُّهما أكثر أخذاً للقرآن ؟ » ، فــإذا أُشير لــه إلى أحدهما قدّمه في اللحد ، وقال : « أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامــة . وأمر بدفنهم بدمائهم ، ولم يصلّ عليهم ولم يُغسلوا »[٢٧] .

● وأخــذ اليهــود والمنــافقــون يظهرون الشماتــة بــالمسلمين ، وراح عبــد الله بن أبي بن سلول يقول هو وأصحــابــه للمسلمين : « لــوأطعتمــونــا

---

(٢٦) البخاري : ٣٣/٥

(٢٧) البخاري : ٤٩/٥

ماقتل منكم من قتل » ، وأخذوا يتساءلون عن النصر الذي كانوا يتوهمونه مع رسول الله ﷺ ، فأنزل الله تعالى آيات من سورة آل عمران تعليقاً على إرجاف اليهود والمنافقين وبياناً لحكمة ماحصل في غزوة أُحد ، وهي تبدأ بقوله تعالى : ﴿ وإذْ غَدَوْتَ مِنْ أهْلِكَ تُبَوِّءُ المؤمنينَ مقاعدَ للقتالِ واللهُ سميعٌ عليمٌ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قالوا لإخوانِهِمْ وَقَعَدُوا لوأطاعُونا ماقُتِلُوا ، قُلْ فادْرَؤوا عَنْ أنْفُسِكُمُ الموتَ إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ﴾ [آل عمران ١٤٩/٣ ـ ١٦٨] .

● وانصرف رسول الله ﷺ من أحد مساء السبت ، فبات تلك الليلة في المدينة هو وأصحابه ، وبات المسلمون يداوون جراحاتهم . فلما صلى رسول الله ﷺ الصبح يوم الأحد ، أمر بلالاً أن ينادي أن رسول الله ﷺ يأمركم بطلب العدو ، ولا يخرج معنا إلا من شهد القتال بالأمس .. ودعا رسول الله ﷺ بلوائه وهو معقود لم يحل ، فدفعه إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وخرج القوم وهم مابين مجروح وموهون ، ومشجوج حتى عسكروا بحمراء الأسد (مكان من المدينة على بعد عشرة أميال) فأوقد المسلمون هناك نيراناً عظيمة ، حتى تُرى من المكان البعيد وتوهم كثرة أصحابها .

● ومرّ بهم معبد الخزاعي (وكان يومئذٍ من مشركي خزاعة) ثم تجاوزهم فمرّ على المشركين ولهم زجل ومرح وزهو بالنصر الذي لاقوه في أُحد ، وهم يأتمرون بالرجوع إلى المدينة للقضاء على المسلمين ، وصفوان بن أمية ينهاهم . فلما رأى أبو سفيان معبداً قال : « ماوراءك يامعبد ؟

فقال : ويحكم ! إن محمداً قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أرَ مثله قط ، يتحرقون عليكم تحرُّقاً ، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أرَ مثله قط ؟ » .. فأدخل الله بذلك رعباً عظيماً في قلوب المشركين ، وهبّوا مسرعين عائدين إلى مكة . وأقام النّبي ﷺ في حمراء الأسد : الاثنين والثلاثاء والأربعاء ، ثم رجع إلى المدينة »[٢٨] .

العبر والعظات :

تنطوي غزوة أُحد على دروس بالغة الأهمية للمسلمين في كل عصر ، ولكأن الحكمة من وقوعها على الشكل الذي بيّناه ، أن يتكون منها درس تطبيقي عملي ، يعلّم المسلمين كيفية البلوغ إلى النصر في معاركهم مع العدو ، وكيفية التحرز من مزالق الفشل والهزيمة ، فلنقف على هذه الدروس العظيمة ولنتأمل فيها ، الواحدة إثر الأخرى :

أولاً : يتجلى هنا أيضاً المبدأ الذي كان رسول الله ﷺ يأخذ به نفسه ، وهو التزام التشاور مع أصحابه في كل أمر يحتمل المشاورة والبحث . ولكنا نقف هنا على فارق واحد لم نجده في المشاورة التي تمّت قبيل غزوة بدر . فقد لاحظنا أنه عليه الصلاة والسلام لم يشأ أن يعود عن موافقته لأصحابه الذين اقترحوا الخروج للقاء العدو خارج المدينة ، بعد أن لبس درعه وأخذ أهبته للقتال ، على الرغم من أنهم ندموا وعادوا عن رأيهم ورجوه البقاء إذا كان يرى ذلك . وربما كان النّبي ﷺ يميل - أو يظهر الميل - عند التشاور إلى البقاء في المدينة .

ولعل الحكمة الجلية في هذا ، أن البحث في الأمر بعد أخذ العدة للقتال ، وبعد ظهور النّبي ﷺ في قومه وأصحابه لابساً دروعه آخذاً سلاحه ، شيء خارج عن حدود ما يقتضيه مبدأ التشاور خصوصاً في القضايا الحربية التي تحتاج - مع المشورة - إلى قدر كبير من الحزم والعزم . ثم إن المعنى الذي قد يتولد عن تقاعسه ﷺ عن الخروج بعد أن طلع عليهم مستعداً لذلك ، إنما هو الضعف والاضطراب في الإرادة وهو كثيراً ما يكون نابعاً من الخوف والحذر

(٢٨) طبقات ابن سعد وسيرة ابن هشام وتاريخ الطبري .

اللذين لا معنى لهما . ولـذلـك أجـابهم النّبي ﷺ عن كلامهم بعبـارة فيهـا كل الحزم والعزم ، دون أن يلتفت إلى لغـط القوم وتعـاتبهم فيما بينهم ، قـال : « مـا ينبغي لنبيّ لبس لأمتـه أن يضعها حتى يقاتل » .

ثانياً : للمنافقين في هذه الغزوة مشهد بارز .. ولم لا يكون مشهدهم بارزاً فيهـا ، وهي إنما انطوت على حكم ومقاصد ، من أهمهـا تمحيص المؤمنين عن أخلاطهم من المنـافقين ؟ وإن من وراء ذلك لفوائد كبيرة للمسلمين كانت ذخراً لهم فيما بعد .

لقـد رأينـا كيف انخـذل عبـد الله بن أبي بن سلـول بثـلاث مئـة من أتبـاعـه عن رسول الله ﷺ وأصحابه ، بعد خروجهم من المدينة ، وسبب ذلك في ظاهر مـا تـذرع بـه : أنّ النّبي ﷺ إنمـا أخـذ برأي الشبـان الأغرار ، ولم يـأخـذ برأي أمثـالـه من الشيوخ أربـاب الحجى والأحلام . غير أن سبب ذلك في الحقيقة وواقع الأمر ، هو أنه لا يريـد قتـالاً . لأنـه لا يريد أن يعرّض نفسه لمخاوفه ومغبـاتـه .. وتلـك هي أبرز سمات المنـافقين : يريـدون أن يأخذوا ما في الإسلام من مغانم ، ويبتعدوا عما فيه من مغارم وأتعاب !.. وإنما الذي يمسكهم على الإسلام أحد شيئين : غنيمة يتوقعونها ، أو مصائب ومحن يتوقونها .

ثـالثـاً : أن النبي ﷺ لم يشـأ أن يستعين بغير المسلمين في هـذه الغزوة ، على الرغم من قلة عدد المسلمين ، وقال فيما روى ابن سعد في طبقاتـه : « لا نستنصر بـأهل الشرك على أهل الشرك »[٢٩] . وقـد روى مسلم أن النبي ﷺ قـال لرجل تبعـه في يـوم بـدر ليقـاتـل معـه : « أتؤمن بالله ؟ قال : لا ، قال : فارجع فلن أستعين بمشرك » .

وقد ذهب جمهور كبير من العلماء ، بناء على هذا ، إلى أنه لا يجوز الاستعانـة بـالكفـار في القتال ، وفصّل الإمام الشافعي في ذلك ، فقال : « إن رأى الإمـام أن الكافر حسن الرأي والأمانة في المسلمين وكانت الحاجة داعية إلى الاستعانة به جاز ، وإلا فلا »[٣٠] .

---

(٢٩) قـد يقـال : إن هؤلاء الـذين عرضوا مشـاركتهم مع المسلمين في القتـال يهود من أهل الكتـاب ، فكيف سماهم الرسـول أهـل الشرك . والجـواب : أن إطـلاق الشرك عليهم بمعنى غير المعنى الاصطلاحي الذي يطلق على الوثنيين من العرب وللشرك معنى عام يعتبر قـدراً مشتركاً يصـدق على جميع الكافرين .

(٣٠) انظر مغني المحتاج : ٢٢١/٤

ولعل هذا هو المتفق مع القواعد ومجموع الأدلة ، إذ روي أنه عليه الصلاة والسلام قبل معونة صفوان بن أمية يوم حنين ، والمسألة على ذلك داخلة في إطار ما يسمى بالسياسة الشرعية . وسنذكر الفرق بين مافعله الرسول في حنين وما فعله في كل من بدر وأحد ، في مناسبته إن شاء الله .

رابعاً : ومما يجدر التأمل فيه ، حال سمرة بن جندب ورافع بن خديج ، وهما طفلان لا يزيد عمر كل منهما على خمس عشرة سنة ، وكيف جاءا يناشدان رسول الله ﷺ أن يسمح لهما بالاشتراك في القتال ، وأي قتال ؟!. قتال قائم على التأهب للموت ، لاتجد فيه أي معنى من التعادل بين الفريقين : المسلمون وعددهم لا يزيد على سبع مئة ، والمشركون وهم يتجاوزون ثلاثة آلاف مقاتل .

والعجيب حقاً أن يقف بعض محترفي الغزو الفكري على مثل هذه الظاهرة ، فيذهبوا في تحليلها إلى أن العرب كانوا أمة تعيش في ظل الحروب والغزوات الدائمة ، فكانوا ينشؤون في أجوائها وظروفها ، ولذلك كانوا ينظرون إليها (شيباً وشباناً وأطفالاً) نظرة طبيعية لاتسبب لهم قدراً بالغاً من المخاوف .

لا ريب أن أرباب هذا التحليل ، يغمضون أعينهم في إصرار عجيب ، أثناء هذا الكلام عن تخاذل أمثال عبد الله بن أبي بن سلول مع ثلاث مئةٍ من أصحابه ، تحت وطأة الخوف من عواقب القتال ، والرغبة في الجنوح إلى السلامة والأمن . وعن تخاذل أولئك الآخرين الذين استعذبوا ظل المدينة وثمارها ومياهها وسط حرارة الصيف ، وأعرضوا عن نداء رسول الله ﷺ بالخروج والقتال ، قائلين : « لاتنفروا في الحر » . بل وعن هزيمة المشركين في غزوة بدر ، على الرغم من ضخامة عددهم وقلة المسلمين ، ووقوع الرعب في أفئدتهم ، وهم هم العرب الذين نشؤوا في ظلال الحروب ورضعوا ألبانها واستهانوا بصعابها .

من الصعوبة البالغة للمنصف أن يتهرب عما تحكم به البداهة الواضحة ، من أن سرّ هذا الإقدام على الموت من مثل هؤلاء الأطفال ، إنما هو الإيمان العظيم الذي استحوذ على القلب ، والذي ترتبت عليه محبّة عارمة لرسول الله ﷺ . فحيثما وجد الإيمان ووجدت هذه المحبة ، ظهر هذا الإقدام والاستبسال ، وحيثما ضعف الإيمان ، وضعفت المحبة في القلب انقلب الإقدام إحجاماً والاستبسال كسلاً وتقاعساً .

خامساً : إذا تأملت حال رسول الله ﷺ ، وهو ينظم صفوف أصحابه ويرتب أجنحتهم ، ويضع الحامية اللازمة في مؤخرة المسلمين ، ويأمر الرماة أن لا يغادروا أماكنهم مهما وجدوا من أمر إخوانهم المقاتلين حتى يتلقوا الأوامر منه ﷺ ، نقول : إذا تأملت ذلك اتضحت حقيقة بارزة ، ولاحت لك من ورائها ظاهرة هامة أخرى .

أما الحقيقة البارزة ، فهي البراعة العسكرية التي كانت تتصف بها قيادته ﷺ في الحروب ، فقد كان في مقدمة المخططين لفنون القتال وطرائقه ، ولا ريب أن الله تعالى قد جهزه بعبقرية نادرة في هذا المجال . ولكننا نقول : إن هذه العبقرية والبراعة إنما يأتي كل منهما من وراء نبوته ورسالته السماوية ، فمركز النبوة والرسالة هو الذي اقتضاه ﷺ أن يكون عبقرياً بارعاً في فنون الحرب وغيرها ، كما اقتضاه أن يكون معصوماً بعيداً عن كل انحراف وزلل . وقد شرحنا هذا في القسم الأول من هذا الكتاب فلا حاجة إلى تكراره .

وأما الظاهرة التي تلوح للمتأمل من خلال توصياته الدقيقة هذه لأصحابه عامة ، وللرماة خاصة فهي ظاهرة ذات علاقة وثيقة بما قد تم بعد ذلك من خروج بعض أولئك الرماة على أوامره ﷺ . فكأن النبي ﷺ قد استشف بفراسة النبوة أو بوحي من الله تعالى هذا الذي قد حدث فيما بعد ، فراح يؤكد التوصيات والأوامر ، وكأنه في ذلك يُجري مع أصحابه مناورة حية مع عدوّ لهم هو النفس وأهواؤها وما تنطوي عليه من طمع في المال والغنائم ، والمناورة مهما كانت نتيجتها ، تفيد فائدة عظيمة .. وربما كانت النتيجة السلبية أدعى للاستفادة من النتيجة الإيجابية .

سادساً : أبو دجانة ، الذي تناول السيف من يد رسول الله ﷺ بحقه ، أخذه وراح يتبختر بين الصفوف ، فما أنكر عليه رسول الله ، وإنما قال : « إن هذه مشية يكرهها الله إلا في مثل هذا الموضع ! » . وهذا يدل على أن كل مظاهر الكبر المحرمة في الأحوال العامة ، تزول حرمتها في حالات الحرب . فمن مظاهر الكبر المحرمة أن يسير المسلم في الأرض مرحاً متبختراً ، ولكن ذلك في ميدان القتال أمر حسن وليس بمكروه . ومن مظاهر الكبر المحرمة تزيين البيوت أو الأواني والأقداح بالذهب أو الفضة . غير أن تزيين آلات الحرب وأسلحتها بالفضة غير ممنوع . فمظهر الكبر هنا إنما هو في حقيقته افتخار بعزة الإسلام على أعدائه . ثم هو معنى من معاني الحرب النفسية التي ينبغي أن لا تفوت المسلمين أهميتها .

سابعاً : إذا تأملنا مدة الحرب التي استمرت بين المسلمين وأعدائهم في هذه الغزوة وجدناها تنقسم إلى شطرين :

الشطر الأول : وفيه التزم المسلمون أماكنهم وأوامرهم التي كانوا قد تلقوها من قائدهم عليه الصلاة والسلام ، فما الذي كان من ثمرة ذلك ؟ لقد سارع النصر إلى المسلمين ، وسارعت الهزيمة إلى صفوف المشركين ، وما هو إلا أن اكتسح الرعب أفئدة الآلاف الثلاثة فانحسروا عن أماكنهم وأخذوا يولون الأدبار ، وهذا الشطر هو الذي علقت عليه الآية الكريمة في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ﴾ [آل عمران ١٥٢/٣] .

الشطر الثاني : وفيه أخذ المسلمون ينطلقون خلف المشركين ليجهزوا على من يدركونه منهم ، وليأخذوا الغنائم والأسلاب ، وحينئذ نظر الرماة من فوق الجبل الذي كانوا يتمركزون فيه ، إلى إخوانهم وهم يضعون السيوف في أعدائهم اللائذين بالفرار ويعودون بالأموال والغنائم ، فرغب بعضهم أن يشتركوا معهم في الغنيمة ، وخيلت إليهم هذه الرغبة أنّ الفترة الزمنية للأوامر التي تلقوها من رسول الله ﷺ قد انتهت ، فهم في حلّ منها وهم في غنى عن انتظار إذن رسول الله ﷺ لهم بمغادرة أماكنهم وهو اجتهاد خالفهم فيه بعض زملائهم وفي مقدمتهم أميرهم عبد الله بن جبير ، ولكنّ أصحاب هذا الاجتهاد نزلوا وانطلقوا يشاركون في أخذ الغنائم . فما الذي كان من نتيجة ذلك ؟

لقد كان أن انقلب الرعب الذي داهم أفئدة المشركين إلى استبسال جديد ! .. وكان أن تفتحت أسباب الحيلة والمكر لدى خالد بن الوليد الذي كان يولي هارباً ، فنظر حوله متأملاً ، فوجد الجبل المحصّن قد خلا من حماته وحراسه ، فلمعت الفكرة العسكرية في رأسه ، وما هو إلا أن استدار إلى الجبل مع من معه من المشركين ، فقتلوا من بقي ممن لم ينزل وأوجعوا المسلمين رمياً بالسهام من خلفهم .. وجاء الرعب هذه المرة ليغزو أفئدة المسلمين كما رأينا . وهذا الشطر من المعركة هو الذي علقت عليه الآية الكريمة في قوله تعالى : ﴿ حتّى إذا فَشِلْتُمْ وتنازعتُمْ في الأمرِ ، وعَصَيْتُمْ مِن بعدِ ما أراكُمْ ما تحبونَ ، منكُمْ مَنْ يريدُ الدنيا ومنكُمْ من يريدُ الآخرةَ ، ثمّ صرفَكُمْ عنهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾ [آل عمران ١٥٢/٣] .

وانظر ! .. كم كان وبال هذه الخطيئة جسيماً ، وكم كانت نتيجتها عامة ! ..

لقد عادت خطيئـة أفراد قليلين في جيش المسلمين ، بـالوبـال عليهم جميعـاً ، بحيث لم ينـج حتى رسـول الله ﷺ ، من نتـائجهـا ، وتلـك هي سنـة الله في الكـون ، لم يمنعهـا من الاستمرار أن رسول الله ﷺ موجود في ذلك الجيش ، وأنه أحب الخلق إلى ربه جلَّ جلاله .

فتـأمل أنت في نسبـة خطيئـة أولئـك الأفراد ، إلى أخطـاء المسلمين المتنـوعـة اليـوم ، والمتعلقة بشتى نواحي حياتنا العامة والخاصة . تأمل هذا لتتصور مدى لطف الله بالمسلمين إذ لا يهلكهم بمـا تكسب أيـديهم ، وبتقـاعسهم حتى عن أداء واجب الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر والاجتماع في كلمة واحدة على ذلك .

وإذا تـأملت في هــذا ، علمت الجـواب عن سـؤال بعضهم اليـوم ، عن الحكمـة من أن الشعوب الإسلامية تظل مغلوبة على أمرها ، أمام الدول الباغيـة الأخرى ، على الرغم من أن هؤلاء كفرة وأولئك مسلمون .

ثامناً : لقد رأينا أن النبي ﷺ أوذي كثيراً في هذه الفترة ، فوقع لشقه ، وشجَّ رأسه ، وكُسرت رباعيته ، وساح الدم غزيراً في وجهه ، وكل ذلك جزء من نتائج تلك الخطيئـة .. خطيئة أولئك المسلمين في الخروج على أوامر القائد . ولكن مـاالحكمـة في أن يشيع خبر مقتل رسول الله ﷺ في صفوف المسلمين ؟!..

والجواب : أن ارتبـاط المسلمين برسـول الله ﷺ ووجـوده فيما بينهم كان لـه من القـوة بحيث لم يكونوا يتصورون فراقه ولم يكونوا يتخيلون قدرة لهم على التماسك من بعـده ، فكان أمر وفاة رسول الله ﷺ شيئاً لا يخطر لهم في بـال ، وكأنهم كانوا يُسقطون حسـاب ذلـك من أذهانهم ، ولا ريب أنهم لو استيقظوا من غفلتهم هذه على خبر وفاته الحقيقية ، لصـدّع الخبر أفئدتهم ، ولزعزع كيانهم الإيماني بل لقوّضه في نفوس كثير منهم .

فكان من الحكمة الباهرة أن تشيع هـذه الشـائعـة ، تجربـة درسيّـة بين تلـك الـدروس العسكريـة العظيمـة ، كي يستفيق المسلمـون من ورائهـا إلى الحقيقـة التي ينبغي أن يـوطنـوا أنفسهم لها منذ الساعة ، وأن لا يرتدوا على أعقابهم إذا وجـدوا أن رسول الله ﷺ قـد اختفى مما بينهم .

ومن أجل بيان هذا الدرس الجليل نزلت الآية تعليقاً على ماأصـاب كثيراً من المسلمين

من ضعف وتراجع لدى سماعهم نبأ مقتل رسول الله ﷺ ، وذلك إذ يقول الله تعالى :

﴿ وما محمدٌ إلا رسولٌ ، قدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِنْ ماتَ أو قُتِلَ انقلبْتُمْ على أعْقابِكُمْ ؟ ومن يَنْقَلِبْ على عقبَيْهِ فَلَنْ يضرَّ اللهَ شيئاً ، وسيَجزي اللهُ الشاكرينَ ﴾ [آل عمران ١٤٤/٣] .

ولقد اتضح الأثر الإيجابي لهذا الدرس ، يوم أن لحق رسول الله ﷺ فعلاً بالرفيق الأعلى ، فقد كانت شائعة أحُد هذه ، مع مانزل بسببها من القرآن ، هي التي أيقظت المسلمين ونبهتهم إلى الحقيقة ، فودعوا رسول الله ﷺ بقلوبهم الحزينة ، ثم رجعوا إلى الأمانة التي تركها بين أيديهم ، أمانة الدعوة والجهاد في سبيل الله ، فنهضوا بها أقوياء بإيمانهم أشداء في عقيدتهم وتوكلهم على الله تعالى .

تاسعاً : ولنتأمل في وقع الموت على أصحاب رسول الله ﷺ ، وهم من حوله يحمونه بأجسادهم من نبال المشركين وضرباتهم ، يتساقطون الواحد منهم إثر الآخر تحت وابل السهام ، وهم في نشوة عارمة وحرص حريص على حفظ حياة رسول الله ﷺ ، لا يبالون بغير ذلك ! .. فما هو مصدر هذه التضحية العجيبة ؟ .

إنه الإيمان بالله ورسوله أولاً ، ثم محبة رسول الله ﷺ ثانياً ، فهما معاً سبب هذه التضحية الرائعة العجيبة . والمسلم يحتاج إليهما معاً ، لا يكفيه أن يدّعي الإيمان بما ينبغي الإيمان به من أمور العقيدة ، حتى يمتلئ قلبه بمحبة الله ورسوله أيضاً ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين »[٣١] .

وبيان ذلك أن الله عز وجل قد غرس في الإنسان عقلاً وقلباً . أما الأول فلكي يفكر به فيؤمن بما يجب الإيمان به . وأما الثاني فلكي يستعمله في محبة من أمر الله بمحبته وبغض من أمر ببغضه . وإذا لم يشغل القلب بمحبة الله ورسوله والصالحين من عباده ، فسيمتلئ ولا بد بمحبة الشهوات والأهواء والمحرمات . وإذا فاض القلب بمحبة الشهوات والأهواء فهيهات أن يصبح الاعتقاد وحده حاملاً لصاحبه على أي عمل من أعمال التضحية أو الفداء .

---

(٣١) متفق عليه .

وهـذه الحقيقـة من الأوليّـات التي أقرهـا علمـاء التربيـة ، والأخـلاق ، ودلت عليهـا التجارب البدهية ، واسمع ما يقوله في ذلك جان جاك روسو في كتابه (اميل) :

« كم قيل وأعيد القول عن الرغبة في إقـامـة الفضيلـة على العقل وحـده ، ويـا لـه من أسـاس متين ! .. أي أسـاس هـذا ؟! .. إن الفضيلـة كما يقـولـون هي النظـام ، ولكن هـل يستطيع الإيمان بالنظام أن يتغلب على مسرتي الخاصـة ؟ .. إن هـذا المبـدأ المزعوم ليس إلا لعباً بالألفاظ فالرذيلة هي حب النظام بشكل مختلف »(٣٢) .

من أجل هذه الحقيقة لم تستطع الحكومة الأمريكيـة أن تلتزم بمـا آمنت بـه واعتقـدت بفـائـدتـه يوم أقـدمت على تحريم الخمر ومنع مـداولتهـا في المجتمعـات والنوادي ، وذلـك عـام ١٩٣٣ م ، إذ لم تمض سوى فترة وجيزة حتى نكص المقننون على أعقابهم ، وارتـدّوا مترنحين من ألم الحرمان فألغوا القانون الذي التزموه وراحوا يَعُبُّون أقداحهم من جديد ..

هذا على حين أن أصحاب رسول الله ﷺ - وهم من هم من الثقـافـة والمـدنيـة ومعرفـة الأضرار والفوائـد بـالنسبـة للأمريكيين اليوم - عمـدوا بمجرد أن سمعوا أمر الله عـز وجـل لهم باجتناب الخمر ، إلى دنان الخمر فأراقوها وإلى الأقـداح فكسروهـا ، وارتفعت أصواتهم تقول : « انتهينا يا رب انتهينا ! » :..

والفرق بين الصورتين والواقعتين ، أن ههنـا شيئـاً قـد وقر في القلب فكان هـواه تبعـاً لأمر الله وأحكامه .

هـذه المحبـة ، بل هـذا الهوى المستحوذ على قلوب أصحـاب رسول الله ﷺ هـو الـذي جعلهم يمدون نحورهم دون نحر رسول الله ويعانقون الموت في سبيل حفظ حياته عليه الصلاة والسلام . وكم في غزوة أحد من المشاهد الرائعة التي تكشف عن أثر هـذه المحبـة إذ تغمر قلب صاحبها .

روى ابن هشام أن النبي ﷺ قال لأصحـابـه : « من رجل ينظر لي مـا فعل سعـد بن الربيع أفي الأحياء هو أم في الأموات ؟ فقال رجل من الأنصار : أنا أنظر لـك يـا رسول الله ما فعل سعد . فنظر ، فـإذا هو جريح في القتلى وبـه رمق . فقـال لـه : إن رسول الله ﷺ

(٣٢) راجع التوسع في هذا البحث كتابنا : تجربة التربية الإسلامية في ميزان البحث .

أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات ! .. قال : أنـا في الأموات ، فـأبلغ رسول الله عني السلام ، وقل له : إن سعد بن الربيع يقول لك : جزاك الله عنا خير مـاجزى نبيـاً عن أمته ، وأبلغ قومك عني السلام وقل لهم : إن سعد بن الربيع يقول لكم : إنه لا عذر لكم عنـد الله إن خلُص إلى نبيكم ﷺ وفيكم عين تطرف . قال الأنصاري : فلم أبرح حتى مات » .

ويوم تمتلئ أفئدة المسلمين في عصرنا هذا بنحوٍ من هذه المحبة ، بحيث تبعـدهم قليلاً عن شهواتهم وأنانيتهم ، وتتغلب عليها ، أقول : يوم يحدث هذا في أفئدة المسلمين فـإنهم يصبحون خلقاً آخر جديداً ، وسينتزعون انتصارهم من بين شدقي الموت وسيتغلبون على أعـدائهم ، مهما كانت العقبات والسدود .

وإذا سألت عن السبيل إلى مثل هذه المحبـة ، فـاعلم أنهـا في كثرة الـذكر وكثرة الصلاة على رسـول الله ﷺ ، وفي كثرة التـأمـل والتفكر في آلاء الله ونعمـه عليـك ، وفي سيرة رسـول الله ﷺ وأخـلاقـه وشمائلـه ، وهـذا كلـه بعـد الاستقـامـة على العبـادات في خشيـة وحضور ، والتبتل إلى الله عز وجل بين الحين والآخر .

عاشراً : وقد رأينا فيما يرويه البخاري رضي الله عنـه ، أن النبي ﷺ أمر بـدفن قتلى المسلمين بدمـائهم ولم يصلّ عليهم ، وجمع بين الرجلين في قبر واحـد ، وقـد استـدل من ذلـك العلماء على أن الشهيد في معركة الجهاد لا يغسل ولا يصلى عليه ، بل يدفن بـدمـائـه . قـال الشـافعي رضي الله عنـه : جـاءت الأحـاديث من وجوه متواترة أنـه لم يصـل عليهم ، وأمـا مـاروي أنـه ﷺ ، صلى عليهم عشرة عشرة ، وفي كل عشرة حمـزة ، حتى صلى عليـه سبعين مرة فضعيف وخطأ[٣٣] . كما استدلوا بذلـك أيضـاً على أنـه يجوز عنـد الضرورة الجمع بين أكثر من واحد في القبر ، أما بدون ضرورة فلا يجوز .

حادي عشر : وإذا تأملنا فيما أقـدم عليـه رسول الله ﷺ مع أصحـابـه فور عودتهم إلى المدينة من الخروج ثانية للحاق بالمشركين ، اتضح لنـا درس معركـة أحـد اتضـاحـاً كاملاً ، وتبين لنا كل من نتيجتيها : السلبية والإيجابية ، وظهر لنا بما لا يـدع مجـالاً للتوهم أن النصر إنما يكون مع الصبر وإطاعة أوامر القائد الصالح واستهداف القصد الديني المجرد .

---

(٣٣) راجع مغني المحتاج : ٣٤٩/١

فقد رأينا أن النبي ﷺ لم يكد يؤذّن في الناس للخروج مرة أخرى لطلب العدوّ ، حتى تجمع أولئك الذين كانوا معه بالأمس ، من بعد ما أصابهم القرح وأنهكتهم الجروح والآلام ، ولم يسترح أحد منهم بعد في بيته أو يفرغ للنظر في حاله وجسمه ، وانطلقوا خلف رسول الله ﷺ يبتغون المشركين الذين لم تخمد بعد في رؤوسهم جذوة النشوة بالنصر . ولم يكن فيهم هذه المرة من يطمع في غنيمة أو غرض دنيوي ، وإنما هو التطلع إلى النصر أو الاستشهاد في سبيل الله ، وهم يسوقون بين يدي ذلك جراحاتهم الدامية ، وقروحهم المؤلمة .

فما الذي كان من نتيجة ذلك ؟

لا نشوة الظفر أو لذة الانتصار ربطت على قلوب المشركين ليتموا نصرهم والتغلب على خصومهم ، ولا وقع الهزيمة وآلام الجروح الكثيفة في المسلمين حال شيء من ذلك دون إقدامهم وانتصارهم .

وكيف كان السبيل ؟ .. لقد كان السبيل إلى ذلك آية إلهية خارقة لتتم الدرس والموعظة للمسلمين ، وقع الرعب فجأة في قلوب المشركين وتصوروا كما أخبرهم صاحبهم الذي كان قد لمح المسلمين عن بعد ، أن محمداً ﷺ وصحبه قد جاؤوا هذه المرة ومعهم الموت المؤكد لينثروه فيما بينهم ، فارتدوا على أعقابهم بعد أن كانوا متجهين صوب المدينة ، وانطلقوا سراعاً إلى مكة لا يلوون على شيء ! ..

أما كيف داخلهم هذا الرعب الغريب من المسلمين ، وهم الذين كسروا شوكتهم ووضعوا السيف فيهم قبل ساعات فقط من الزمن ، فمردّ ذلك إلى الإرادة الإلهية التي جعلت من هذه الموقعة كلها درساً بليغاً للمسلمين ، جمع بين كلا مظهريه الإيجابي والسلبي في آن واحد .

وفي هذا الختام الأخير المتمم لموعظة أحد نزل قوله تعالى :

﴿ الذينَ استجابوا للهِ والرسولِ مِنْ بَعْدِ ما أصابَهُمُ القرْحُ ، للذينَ أحْسَنوا مِنْهُمْ واتَّقَوا أجْرٌ عظيمٌ ، الذينَ قالَ لَهُمُ الناسُ إنّ النّاسَ قَدْ جَمَعوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ، فَزادَهُمْ إيماناً وقالوا : حَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ فانْقَلَبوا بنعمَةٍ مِنَ اللهِ وفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سوءٌ واتّبَعوا رِضْوانَ اللهِ واللهُ ذو فضلٍ عظيمٍ ﴾ [آل عمران ٣/١٧٢-١٧٤] .

صلح الحديبية

كان في شهر ذي القعدة ، آخر سنة ست للهجرة .

وسببها أنّ النّبي ﷺ أعلن في المسلمين أنه متوجّه إلى مكة معتمراً ، فتبعه جمع كبير من المهاجرين والأنصار بلغ عددهم ألفاً وأربع مئة تقريباً . وأحرم ﷺ بالعمرة في الطريق ، وساق معه الهدي ليأمن الناس من حربه وليعلموا أنه إنما خرج زائراً البيت ومعظماً له .

وأرسل ﷺ وهو عند ذي الحليفة عيناً له من قبيلة خزاعة اسمه بشر بن سفيان ليأتيه بخبر أهل مكة ، وسار النّبي ﷺ حتى وصل إلى غدير الأشطاط ، فأتاه العين الذي كان قد أرسله ، فقال له : « إن قريشاً جمعت لك جموعاً ، وقد جمعوا لك الأحابيش ، وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت ومانعوك ، فقال : أشيروا أيها الناس .. فقال له أبو بكر : يا رسول الله ، خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد ، فتوجه له ، فمن صدّنا عنه قاتلناه . قال : امضوا على اسم الله .

ثم قال : من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها ؟ فقال له رجل من بني أسلم : أنا يا رسول الله . فسلك بهم طريقاً وعراً بين الشعاب ، وسار النّبي ﷺ وأصحابه حتى إذا كانوا في ثنية المِرار (وهي طريق في الجبل تشرف على الحديبية) بركت به راحلته ، فقال الناس :

حل ، حل (اسم صوت كانوا يزجرون به الجمال) فلم تتحرك ، فقالوا : خلأت القصواء ، فقال ﷺ : ماخلأت ، وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل ، ثم قال : والذي نفسي بيده ، لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها ، ثم زجرها فوثبت ، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية على حُفَيرة قليلة الماء ، فلم يلبث الناس حتى نزحوه ، وشكوا إلى رسول الله ﷺ العطش ، فانتزع سهماً من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه ، فوالله ما زال يجيش لهم بالريّ حتى صدروا عنه[1] ، فبيما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر معه ، فقال : إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا مياه الحديبية ، ومعهم العوذ المطافيل[2] ، وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت ، فقال رسول الله ﷺ : إنا لم نجئ لقتال أحد ، ولكن جئنا معتمرين ، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرّت بهم ، فإن شاؤوا ماددتهم مدة ويخلّوا بيني وبين الناس ، فإن أظْهَرْ فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلا فقد جمّوا (أي استراحوا) ، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي ، ولينفذن الله أمره . فقال بديل : سأبلغهم ما تقول .

---

(١) هذه من رواية البخاري في كتاب الشرط وابن إسحاق وغيرهما . وقد ذكر البخاري في كتاب المغازي هذا الحديث . وقال : إنه جلس على البئر ثم دعا بإناء فمضض ودعا الله ثم صبّه فيها . ثم قال دعوها ساعة ، ثم إنهم ارتووا بعد ذلك . قال الحافظ ابن حجر في الفتح : ويمكن الجمع بينهما بأن يكون الأمران واقعين معاً . وأما حديث أنه ﷺ وضع يده في ركوة ماء فجعل الماء يفور من بين أصابعه فتلك واقعة أخرى غير هذه . وكل ذلك ثابت صحيح .

(٢) العوذ جمع عائذ ، وهي الناقة ذات اللبن والمطافيل الأمهات من النوق إذا كان معها أطفالها . يريد أنهم خرجوا بكل ما يحتاجون حتى لا يرجعوا إلا بعد أن يمنعوا المسلمين من دخول مكة .

فانطلق بديل فحدّث قريشاً بما سمعه من رسول الله ﷺ . فقام عروة بن مسعود يعرض على المشركين أن يأتي النّبي ﷺ فيكلمه في تفصيل ماجاءهم به بديل بن ورقاء . فقالوا له دونك فاذهب .

فذهب ، فكلّمه النّبي ﷺ بمثل ماكلّم به بديلاً ، فقال له عروة : أرأيت إن استأصلت أمر قومك هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك ، وإن تكن الأخرى ، فإني والله لاأرى وجوهاً ، وإني لأرى أشواباً من الناس (أي أخلاطاً منهم) خليقاً أن يفرّوا ويدعوك . فقال له أبو بكر رضي الله عنه : امصص بظر اللات أنحن نفرّ عنه وندعه !..

فالتفت قائلاً : من ذا ؟ قالوا : أبو بكر . فقال : أما إنه لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها ، لأجبتك[٣] . ثم جعل يكلّم النّبي ﷺ فكلما تكلّم أخذ بلحيته ، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النّبي ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر ، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النّبي ﷺ ، ضرب يده بنعل السيف ، وقال له أخّر يدك عن لحية رسول الله ﷺ . فرفع عروة رأسه فقال : من هذا ؟ قال : المغيرة بن شعبة ، فقال : أي غُدَرْ وهل غسلت سوأتك إلا بالأمس[٤] ؟

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النّبي ﷺ بعينيه ، قال : فوالله ماتنخّم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كفّ رجل منهم فدلك بها

---

(٣) اليد النعمة ، واليد التي يقصدها عروة ، أن عروة كانت تحمل دية فأعانه أبو بكر فيها بعون حسن .

(٤) أراد عروة بذلك أن المغيرة بن شعبة قتل قبل إسلامه ثلاثة عشر رجلاً فودى له عروة المقتولين .